حركة الإصلاح الشيعي، علماء جبل عامل وأدباؤه من نهاية الدولة العثمانية إلى بداية استقلال لبنان

تأليف: صابرينا ميرفان. ترجمه عن الفرنسية: هيثم الأمين
بيروت: دار النهار للنشر، 2003
(656 صفحة، ملاحق، قائمة بالمصادر والمراجع، فهرس بالأعلام)

هذا الكتاب ترجمة لأطروحة دكتوراة صدرت بالفرنسية في مجلدين تحت عنوان: Un réformisme chiite، قدمتها المؤلفة صابرينا ميرفان (Sabrina Mervin) في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية (رينالكو) باريس، عملت على إعدادها سنوات عديدة أمضتها بين بيروت في الأعوام 1992-1993 في إطار برنامج لافوزييه من وزارة الخارجية الفرنسية، وبين دمشق بين الأعوام 1993-1996 في المعهد الفرنسي للدراسات العربية. وقد قدّمت الباحثة خلاصة أطروحتها أمام لجنة مناقشة تألفت من أربعة أعلام في الدراسات الأكاديمية المتخصصة وهم: جيلبير دولانو، مارك غابوريو، نادين بيكودو، والباحث الألماني مزنزاندي، وصدر الكتاب ثمرة ناضجة عام 2000 عن Karthala-Cermoc-Ifead في باريس. وفي العام 2003 صدر بالعربية عن دار النهار بالتعاون مع "ديوان أهل القلم" (لبنان) بترجمة هيثم الأمين بعبارات صافية وأسلوب سلس، وعلى الغلاف الأنيق صورة تجمع حوالي ثلاثين عالما من أعضاء جمعية العلماء العاملية من بداية العقد الرابع من القرن العشرين.

يلاحظ في السنوات الأخيرة ان معظم الأبحاث والدراسات المتعلقة بالإصلاح لدى المسلمين

الشيعة تمحورت حول إيران، والكتاب الذي أمامنا يميط اللثام عن حركة الإصلاح لدى رجال الدين الشيعة في جبل عامل (جنوب لبنان حاليا) من نهاية الدولة العثمانية إلى قيام الدولة اللبنانية (1880-1943) إلى وصف مظاهر هذه الحركة وتحليل خصائصها. وقد اختارت الباحثة هذه المنطقة لكونها منبتا لعلماء الشيعة الإمامية (الجعفريين) — بخلاف جارتها منطقة البقاع التي تقطنها أكثرية شيعية — وقد خصصت لهم تراجم مستفيضة تناولتها بالعرض والتحليل، توصلت من خلالها إلى استعادة بناء البيئة التي انتموا إليها وإلى كشف الصلات الاجتماعية القائمة بينهم، واستراتيجيات المصاهرة، بالاضافة الى علاقاتهم بغيرهم من الفاعلين الاجتماعيين بتفصيل يصل إلى دقائق الحياة اليومية.

إلا أن الخلفية التي يدور عليها الكتاب هي بالأخص خلفية الفوضى الضاربة التي تسببت بها انهيار الدولة العثمانية، والاختلاط الذي أثارته الحرب الكبرى والبلبلة التي نشأت عند قيام الانتداب الفرنسي في لبنان، وبعد انشاء الدولة اللبنانية الحديثة. وكان على العلماء ان يتكيفوا في جميع هذه الأحداث، وهم يتخبطون بين أحلامهم الضائعة والوضع السياسي الذي كانوا يحاولون التأقلم معه ورد بعضهم على مثالية البعض الآخر بموقف واقعي براغماتي.

وقد أكدت الباحثة وجود إصلاح شيعي تميز عن الإصلاح السني كما نعرفه عند محمد عبده وتلامذته، ورأت انه يجب البحث عن مظاهر الإصلاح في جبل عامل في الفترة التاريخية المذكورة، عند العلماء المعممين وعند مثقفي الشيعة من قبيل موقفهم إزاء التعليم الديني وغير الديني. وقد شددت ميرفان على مسألة عقلنة الممارسات الدينية عند الشيعة التي تصدى لها بشكل خاص السيد محسن الامين.

توزع الكتاب على مقدمة وتسعة فصول وخاتمة.

ففي الفصل الأول [صفحة 16-39] وصفت الباحثة جبل عامل "جبل العلماء" وصفا جغرافيا لموقعه وذكره في كتب الرحالة، فرآه الحمداني يُطل على بحيرة طبريا ويشرف على عكا وله نافذة على الاردن،وهو مرتفع، يحده البحر الأبيض المتوسط غربا وجبل حرمون شرقا، ونهر الأولي شمالا، أما جنوبه فمُختَلَف عليه جغرافيا. تطرقت ميرفان ايضا إلى سكانه، وقالت بأنهم

من المتاولة أو الرافضة. ويعتبر محسن الأمين أنهم سموا بالمتاولة كذلك إما لأنهم أثناء المعارك كانوا يقولون: مُت وليًا لعلي"، أو لأنهم كانوا يتولّوا عليًا وأبناءه. وفي موضع آخر يقول إن "المتوالي" هم اسم الفاعل من "توالى" وهو فعل أصله "الولاء" ويعني حبهم اسيادهم اهل بيت النبي (ص31-32). أما بالنسبة لكلمة أرفاض أو روافض أو رفاضة (مفردة رافضي) فهي لفظة ملتبسة لأنها لا تميز بين مذاهب الشيعة المتعددة بل تجمع بين الإمامية والنصيرية وان أصل الكلمة فيه خلاف (ص32).

أما الفصل الثاني [صفحة 41-71] فتطرقت فيها ميرفان إلى المجتمع العاملي من الناحية الاقتصادية، وإلى الفلاحين وطبقاتهم الاجتماعية المتدنية ووضعهم الاقتصادي المزري، واستغلالهم من قبل الأغنياء والاقطاعيين، بعد ذلك تناولت الحواجز الطائفية في جبل عامل متخذة من قرية جبع نموذجا للتفرقة الطائفية في المجتمع العاملي بين المسلمين والمسيحيين وبين الشيعة والسنّة (ص47)، ثم ناقشت أثر الإصلاحات العثمانية على جبل عامل وما أحدثته من تحولات اجتماعية اقتصادية، ولا سيما في يختص بظهور فئة اجتماعية جديدة، ومن ثم انتقلت للحديث عن زعماء جبل عامل ومناطق نفوذهم وإقطاعياتهم، مستعرضة الأحلاف والخصومات بين "الأُسر الكبرى" مثل آل الأسعد، وآل صعب، وآل الفضل (ص54).

بعد ذلك تعرّج الباحثة إلى موقع علماء الدين ومهامهم في المجتمع العاملي في مجال القضاء والإرشاد والتعليم الديني ودورهم في إنشاء المدارس الدينية. كما وتسلط الضوء على العلاقة الوثيقة التي ربطت بين العلماء والزعماء وبينت تباين مواقف العامليين حول الروابط القائمة بين علمائهم وزعمائهم،وأوردت في هذا السياق قولا ما زال يتردد في جبل عامل وينسب إلى هذا أو ذاك من العلماء: "إذا رأيت العلماء على أبواب الزعماء، فبئس العلماء وبئس الزعماء، وإن رأيت الزعماء على أبواب العلماء فنعم الزعماء ونعم العلماء" (ص62). بعدها انتقلت إلى الشعائر الدينية لشيعة جبل عامل وذكرت انهم يفضلون الصلاة منفردين على صلاة الجماعة في المساجد وانهم يصلون ثلاث مرات في اليوم بدلا من خمس ويجمعون بين صلاة الظهر والعصر وبين صلاة المغرب والعشاء، ويستعملون عبارات مثل "صلّى العشاءين" أو "صلاة المغرب

والعشاء، وأنهم يسجدون أثناء ثلاثهم على التربة الحسينية التي يُؤتى بها من كربلاء. وتقرر ميرفان أن الواجبات الدينية عند الشيعة ألين منها عندجيرانهم السنّة وأنّ الدين أقل ظهورا عندهم، ويقتصر في الأغلب على المحيط المنـــزلي، وأن مساجدهم بدون مآذن أو منابر. كما يؤكد ذلك محسن الأمين بأنه يُستحب أن تكون المآذن على ارتفاع المساجد، أما الباحثة ميرفان فترى أنه لربما فعلوا ذلك من باب التقيّة، فمساجدهم لا تُميّز عن غيرها من الأبنية، ويسمونها بـــ"الحُسينيات"، وتطرقت كذلك إلى شعائرهم الأخرى كزيارتهم قبور الأولياء والأئمة في العراق وإيران، ونذرهم النذور، واحتفالهم بعيد مولد المهدي الإمام الثاني عشر[1] في 15 شعبان وإقامتهم الأفراح في هذه المناسبة، واجتماعهم في مقام النبي "يوشع"،[2] وغيرها من معتقدات دينية وشعائر وطقوس يمارسها شيعة جبل عامل.

أما الفصل الثالث [صفحة 72-128] فمدخل إلى متن الكتاب بنواصيه: "ما العالِم؟"، ولا سيما أن المبحث معقود على همّة الأدباء ورجال الدين، فأهل العلم العامليون كانوا ذوي مقام عال ينتسبون إلى أُسر علمية دينية عريقة متماسكة بزواج القرابة، يتوزعون على المشايخ ويعتمرون العمامة البيضاء، والسادة يعتمرون العمامة الخضراء أو السوداء علامة على انهم من ذريّة النبي، وكانوا ملزمين بالظهور بمظهر لائق بمقامهم واظهار قدر من التُقى والناس تكن لهم الاحترام والتقدير.

---

[1] اسمه محمد بن الحسن ويكنى أبا القاسم. له عدّة ألقاب منها الحجّة، المهدي، المُنتظر، وصاحب الزمان. اختفى في سرداب بيته في مدينة سامراء عام 874م وسيعود في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلا كما مُلئت جورا. للتفاصيل عنه انظر: J.G.J. Ter Haar, "Muḥammad al-Ḳā'im", *EI*², Vol. VII (1993), p. 443.

[2] للتفاصيل عن مقام النبي يوشع في منطقة السفوح الشرقية لجبال الجليل الأعلى وأهميته لشيعة جبل عامل، انظر مقالنا الذي سيصدر قريبا في مجلة *קתדרה* تحت عنوان "קבר נבי יושע בגליל העליון וזיקתו לשיעה".

كما أشارت إلى الامتيازات المالية من الخُمس والزكاة التي تمتع بها العلماء، واشارت ميرفان إلى اختلاف الأوضاع الاقتصادية بين العلماء (ص 76) وإلى العلماء الأدباء امثال: أحمد رضا صاحب معجم "متن اللغة" ومحمد جابر آل صفا وسليمان ظاهر وأحمد عارف الزين مؤسس مجلة العرفان، وبينت دور هؤلاء الأربعة في النهضة الأدبية في جبل عامل، والفكر السياسي القومي العربي، وسلّطت الضوء على تماسك العلماء بأنسابهم ومصاهرتهم، ومراحل تعلمهم علومهم الدينية، ونظام الدراسة والمناهج الدراسية، ومتابعة دراستهم في الحوزات العلمية في العراق، والرتب العلمية الدينية الشيعية التي يمر بها العالِم حتى يصل درجة الاجتهاد ويصبح مرجع تقليد، أي صاحب سلطة روحية له أتباع ومقلدين. وتنهي ميرفان هذا الفصل بملحق يضم صورا لمجموعة من العلماء العامليين.

يدور الفصل الرابع [صفحة 129-191] على كيفية وصول الإصلاح إلى جبل عامل. في البدء لمحة عن الشرع وتأويله وتفصيل لمنهج العامليين وشرح عام لفكرة الإصلاح، إلى نظرة على حركة الإصلاح السنية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ثم تسهب الباحثة في رصد تباشير حركة الاصلاح العاملية بين 1882-1909 من افتتاح مدارس إلى تأسيس محافل علمية وجمعيات ثقافية واصدار صحف ومجلات واطلاق دور نشر "العرفان" و"العصرية" مع إعلاء شان مجلة **العرفان** التي أسسها وأدارها أحمد عارف الزين بدءًا من سنة 1909 على نهج صحافة حديثة تحذو حذو مجلة **المقطم** ومجلة **المنار** (ص 185) في نشر المعارف حول العلم والاكتشافات الحديثة، ثم إصدار احمد الزين جريدة **جبل عامل** التي عالجت المواضيع المتعلقة بجبل عامل، وأسس "دار العلوم" ناديًا تدور فيه المناقشة حول اللغة، والترجمة، والطباعة، والنشر، وكيف أن أحمد عارف الزين وقف منارة نقد جريء للوضعية السائدة آنذاك، ثم ساند توجهه فيما بعد محمد جواد مغنية (1904-1979) (ص 189).

الفصل الخامس [صفحة 192-274] وقف على التربية والتعليم الديني عند الشيعة في جبل عامل، أي عن محسن الأمين علما رائدا في إصلاح المدرسة الدينية الشيعية، تلقينا ونصا

ومنهجا، إذ شكّل قدوة في تأسيس المدارس الشيعية في دمشق وبغداد والنجف وجبل عامل، إلى تأسيس آل بيضون للمعهد العالي الصناعي والجمعية الخيرية الإسلامية العاملية، ثم نشأة تيار شباب إصلاحي فيه حسن مروة تحت مظلة "الشبيبة النجفية العاملية" وإنشاء عبد الحسين شرف الدين المدرسة الجعفرية في صور (ص 224)،ونهوض حبيب آل إبراهيم بتأليف كتب مدرسة دينية معدة للمدارس الابتدائية في بعلبك (ص 227)، ولكن الفصل الخامس لا ينتهي قبل أن يعالج مسألة التوفيق بين الإسلام والعلم الحديث، فها هي مجلة **العرفان** تشرع أبوابها بدءًا من سنة 1920 لسجالات تتناول الداروينية والنسبية، إلى فتح الباب امام تعليم البنات، وتحديث اللغة، ووضع المعاجم، إلى حركة إصلاح في التعليم الديني الشيعي مع محسن الأمين الذي دعا إلى معالجة علل النظام التعليمي برمته (ص 254)، وقد آزره من النجف في دعوته محسن شرارة إذ قال بوجوب إدخال تعليم اللغات الأجنبية في منهج الدروس الدينية (ص 261)، ثم نهض علي الزين بتقديم مشروع متكامل لإصلاح الاجتهاد، بحيث يصبح اعتماده على الاستقلال الفكري لدى الفقيه (ص 273).

وعليه فالفصل السادس (صفحة 275-330) "محاربة البدع وإصلاح شعائر عاشوراء"، ينصب على إصلاح شعائر يوم عاشوراء التي قام بها محسن الأمين في العقد الثالث من القرن العشرين، فأشار إلى مبدأ الإصلاح لمجالس العزاء الذي طلع به على الملأ موسى شرارة إثر عودته من العراق عام 1880م، فنقل المجالس التي شاهدها في العراق إلى جبل عامل (ص 294)، ومن بعده حسن يوسف مكّي سنة 1895م، وخلفه عبد الحسين صادق على الرياسة الدينية في النبطية عام 1906، حيث كان هناك تطعيم شعائري، ولكنّ الواضح أن محسن الأمين هو من أطلق الإصلاح إلى أقصى تخومه وبذلك كانت الشعائر الدينية الشيعية عنده مناسبة لتطوير التدين لدى الناس بتقنينه، ولتنظيم الحياة الدينية الشيعية القائمة على العلم والمتيسر لجميع أبناء الطائفة، ولنشر قيمه الأخلاقية (ص 303)، ففي سنة 1928 أصدر "رسالة التنزيه"، من بلدته شقرا، رداً على مناهضي دعوته عبد الحسين صادق في النبطية وعبد الحسين شرف الدين في صور، وفي رسالته جرأة وتحدٍ نادران، فقد حدثت "فتنة" فكرية،

ولقيت تأييدا في مجلة **العرفان** مع أحمد رضا وسليمان ظاهر، ثم كان في النبطية انقسام في الرأي فوُصف محسن الامين بالأموي ونشبت مشادة، لكن محسن الأمين لم يتخل يوما عن التقريب بين مذاهب الإسلام وجاراه في خطته أحمد عارف الزين صاحب مجلة **العرفان**. ولعل الفصل السابع [صفحة 332-397] معقود بجملته وتفاصيله على التقريب بين مذاهب الاسلام ولا سيما أن الاصلاحيين العامليين الذين عاصروا سقوط الدولة العثمانية وانخرطوا في نهج العروبة، فالوطنية كانوا من دعاة الوحدة الاسلامية، أي "جماعة التقريب" (ص 343) وفيهم الآن حبيب آل إبراهيم ومحمد جواد مغنية، إلى عَلَمين بارزين هما محسن الأمين وعبد الحسين شرف الدين (ص 344)، لكن "التقريب" لم يَحُل دون نشوب جدال عقائدي على صفحات مجلة **المنار والعرفان** بمقالة "البدع والخرافات" من البحرين، فسُميت "رسالة البحرين"، وما ان أخرج الوهابيون الهاشميين من الحجاز واستولوا على مكة والمدينة وأقاموا المملكة العربية السعودية بين الأعوام 1924-1926، حتى أعلن احمد رضا مساندتهم فصُدم الشيعة، خاصة وأن الوهابيين هدموا أضرحة الأئمة الأربعة وباقي أضرحة آل البيت (ص 257)، فحبر محسن الأمين عام 1928 **كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب**، فاتسعت دائرة الجدل، فرد محمد علي الحوماني على "خطط" محمد كرد علي، فيما دعا عبد الحسين شرف الدين الى الاتحاد بين المسلمين، فكان تقريب العلويين، بزعامة سليمان احمد وعبد اللطيف مرهج، وأعلنوا إسلامهم على الملأ، فأقرّ مُفتي القدس الحاج أمين الحسيني بدوره بإسلامهم، وتبنوا الفقه الجعفري وأسس حبيب آل إبراهيم وجماعة منهم في اللاذقية الجمعية الخيرية الإسلامية الجعفرية.

الفصل الثامن [صفحة 398-460] "معركة العامليين القومية، من دراسة صابرينا ميرفان، يتناول تعاظم الفكر القومي العربي في صفوف علماء جبل عامل وأدبائه. فمنذ مؤتمر دمشق عام 1877 – الذي كان سريا وهدف إلى انفصال سوريا عن الدولة العثمانية – التف علماء جبل عامل حول احمد باشا الصلح واتفقوا على اختيار عبد القادر الجزائري أميرا على

بلاد الشام، وقد حضر المؤتمر من جبل عامل محمد الأمين، وعلي الحرّ، وشبيب باشا، وعلي عسيران، وفي مرحلة لاحقة اتصل اعيان الشيعة في جبل عامل بالحركة العربية فأعدم منهم في ساحة البرج في بيروت عبد الكريم الخليل، وما أن رجحت كفة الثورة العربية الكبرى ورفع فيصل علمه على ساحل البحر الابيض المتوسط وعيّن كامل الاسعد على جبل عامل ورياض الصلح على صيدا حتى احتار سكان جبل عامل بين الزعامات الجديدة في حكومة فيصل وسلطات الانتداب الوافدة الى المنطقة (ص 420). أما منعطف الشيعة الخطير فكان سنة 1936 حين قامت الثورة الكبرى في فلسطين، سيما وأن جبل عامل امتداده الجليل، فقام سكان جبل عامل بالاضرابات وحركات الاحتجاج، ثم طرأ على المجتمع العاملي تبدل لما تسربت إلى مثقفيه افكار انطون سعاده وافتتاح الحزب القومي السوري، فدعا له في مدينة صور سنة 1936 وأقامة فرع للحزب الشيوعي اللبناني (ص 460).

الفصل التاسع [صفحة 461-499] وسمته بعنوان "من التأكيد على الهوية الشيعية إلى تشكيل الطائفة السياسية"، عالجت فيه كتابة التاريخ العاملي، وتاريخ دخول التشيع إلى جبل عامل، وأشارت إلى أن العامليين في كتابة تاريخ منطقتهم وتاريخ سكانها اختطوا منهجا جماعيا (ص 467) تشكلت ملامحه العريضة نظاما للتصور الذاتي لهم، وأن صورة جبل عامل تألفت شيئا فشيئا حسب الخطوط التالية: في البدء كان بنو عاملة وهم قبيلة عربية يمنية أتوا إلى "الجبل" واستقروا فيه، فحمل اسمهم، وأن تاريخ جبل عامل بدأ بمجيء أبي ذر الغفاري اليه، وهو من نشر التشيع بين سكان الجبل، وكان معاوية بن أبي سفيان قد طرده من دمشق، فأقام فيه فترة واسس بذلك طائفة شيعية، وأن العامليين رفضوا الخضوع لأمراء لبنان في القرن السابع عشر ميلادي، مما مكنهم من أن يثبتوا وجودهم باعتبارهم طائفة سياسية فسمّوا بالمتاولة، ومن هذه الخطوط في تاريخ جبل عامل أن الجزار ألحق الظلم والاضطهاد بجبل عامل في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، بعد حقبة ازدهرت فيها المدارس الدينية، وفي أواسط القرن التاسع عشر أعاد إبراهيم باشا الأمن إلى البلاد فعرفت المدارس الدينية نهضة جديدة (ص 468).

ومن أبرز الذين أرّخوا لجبل عامل كان محسن الأمين، فله **خطط جبل عامل وأعيان**

الشيعة، ومنذ عام 1908 بدأ كتّاب الشيعة في جبل عامل بالحديث في مقالاتهم عن الأمة العاملية، وحاولوا إدخالها في مجتمع سياسي واسع، إلا أنهم لم يتخيلوا أن يأتي يوم يُجبرون فيه على دمجها في دولة صغيرة مؤلفة على شكل فسيفساء من الطوائف القريبة من بعضها البعض، فاضطروا منذ إعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 (ص 495) إلى التكيف مع الإجحاف اللاحق بهم من جهة التمثيل العام والضرائب والمدارس، و لم يُستشاروا في صياغة الميثاق الوطني يوم استقل لبنان عام 1943.

على هذا النحو ترسم صابرينا ميرفان صورة واضحة المعالم لمنطقة جبل عامل التي نشأ فيها التشيع الإمامي (الاثني عشري) وأقاموا فيها مدارسهم، واحتفظت بتراث علمي، رغم أن طلابها كانوا يسافرون إلى المدارس الدينية الشيعية في العراق لفترات طويلة لاستكمال دراساتهم الدينية والوصول الى رتبة الاجتهاد، ليعودوا إلى الديار العاملية ويتخذوا مواقعهم بين ظهراني العلماء ويبدأون في عملية التعليم الديني والارشاد والقضاء والفصل في المنازعات، ففي البداية مثّل حسن يوسف مكّي ويوسف شرارة بداية حركة الإصلاح في جبل عامل إثر عودتهما من النجف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد لاحظت الباحثة أن السياق الذي تطورت فيه حركة الاصلاح العاملية كان في اطار الفوضى التي احدثها انهيار الدولة العثمانية، حيث سطع في هذه المرحلة نجم محسن الأمين مُصلحا، جعل المدرسة واقعا والشعائر الدينية خالية من التعذيب الذاتي، وفتح حوارا مع رشيد رضا وارث محمد عبده والناطق باسم السلفية في مجلته **المنار**، ثم شهد الاصلاح الشيعي نمطا مغايرا إذ تمكن جيله الناشئ من الدعوة إلى العدالة الاجتماعية عند منعطف 1936 وتمرد بلدة بنت جبيل على نظام الزعماء، وكُتِبَ للشيعة تحول إلى السياسة مع عبد الحسين شرف الدين فانتصرت الفكرة اللبنانية عند العامليين على الفكرة العربية، وإن كنّا لا نرى أن المسألة بهذه البساطة تحليلا، ولئن اندمجت الطائفة الشيعية في جبل عامل مع الدولة فبقيت فئة منها تسعى الى تنظيم العقيدة ليس إلا، فاتضحت ثنائية العلاقة مع المؤسسة الرسمية، مما مكن هيئة علماء الشيعة من حسن التحكم في مجريات الامور.

لكن يبدو أن الشيعة حريصون أبدا على استقلالهم في المقام الأول حتى لو كان ذلك على حساب محاربة الفوضى التي نبذها دُعاة الإصلاح.

دراسة ميرفان إذن قراءة ايضا في نفسية الشيعة عبر دراسة تاريخها الخاص بها بتأثير جغرافيا جبل عامل، وإن كنّا نود ان تُفرد لها الباحثة حيزا أكبر، فبرأينا أن جبل عامل قنطرة فكرية، أحدث علماؤه نهضة عقائدية طالت مجمل مشارب الدعوات القومية وحتى الأممية العربية حتى الساعة، وجبل عامل "مفصل" مجذر في تاريخ فلسطين المعاصر وبلاد الشام، وإن كانت له خاصية طبقية لارتباط اهله بالزراعة.

حركة الإصلاح الشيعي إذن مرجع ثري ومفصل يساهم بالتعمق في فهم أحوال علماء جبل عامل وأدبائه بين السنوات 1880-1920، وسيصبح دون شك لبنة مركزية في البحث العلمي في مجال البحث عن شيعة جبل عامل وحركة الإصلاح الشيعي فيه.

بعد هذا العرض لمحتويات كتاب صابرينا ميرفان عن حركة الاصلاح الشيعي، لا بدّ من بعض الملاحظات:

1. التقت المؤلفة في كتابها مع عدد من الباحثين أمثال احمد رضا، ماريتي، محسن الأمين، وأمير معزي، حول تسمية الشيعة في جبل عامل بـــ"المتاولة" و/أو "الروافض" دون أن تبدي رأيها في سبب التسمية، بل اقتصرت على استعراض آراء الباحثين في ذلك، ولم تطلّع على مقال إيتان كولبرغ "مصطلح الروافض واستعماله عند الشيعة الامامية"،[3] الذي يتطرق فيه إلى معاني المصطلح واستعمالاته لدى الشيعة الإمامية عبر العصور.

---

[3] للتفاصيل عن هذا المقال انظر: Etan Kohlberg, "The Term Rāfiḍa in Imāmī Shīʿī Usage", *Journal of American Oriental Society*, 95, New Haven, Connecticut, 1975, pp. 395-402. وأعيدت طباعته ونشر في كتاب: Belief and Law in Imāmī Shīʿism, Aldershot, Varorun, Reprints, Collected Studeis, CS, 1991, Chapter IV.

2. إذا كانت هذه الدراسة تتقيد في عنوانها بمنطقة جغرافية محددة – جبل عامل – فكيف يمكن أن نفسر لجوء الباحثة في متن بحثها الى اصلاحات موسى شرارة في دمشق (ص 298-300)، واصلاحات محسن الأمين في دمشق والبصرة (ص 304-308)؟

3. في معرض حديث الكاتبة عن شعائر الصلاة، خلطت بين المسجد والحسينية وجعلتهما اسمين مترادفين، معتمدة بذلك على محمد بهجت ومحمد التميمي في كتابهما الموسوم بـــ **ولاية بيروت** (ص 129). والواقع أن الحسينية لدى الشيعة الامامية تختلف عن المسجد وتعتبر في المرتبة الثانية بعد المسجد، ولا تنطبق عليها أحكام المسجد وقيوده من الوجهة الشرعية، مثل تقييد نوعية روادها وقاصديها خاصة فيما يتعلق بدخول غير المسلمين. والحسينية هي مبنى يتألف من قاعة كبيرة، شيد خصيصا لاقامة مراسيم العزاء على الحسين ابن علي (680م) في الأيام العشرة الأولى من شهر المحرم، أو كما تسمى لدى الشيعة بـــ"أيام المحرم". والحسينيات لا تقتصر على جبل عامل، فهي منتشرة في معظم مناطق الشيعة في أقطار العالم. إضافة إلى كونها مركزا أو تجمعا لإقامة شعائر العزاء، فهي تستخدم ايضا كدار استراحة أو فندق مجاني للزوار. وتسمى الحسينية في بعض مناطق جبل عامل باسم النادي الحسيني، كالنادي الموجود في مدينة صور، وفي دول الخليج تسمى بـــ"المأتم"، وفي الهند وباكستان يطلق عليها "إمام بارة" أي مركز الإمام – أي الإمام الحسين بن علي –، وفي مناطق أخرى في الهند تسمى بعدة اسماء، منها: التكيّة، غراخانه، تعزية خانه، عاشوراء خانه، تابوت خانه، جبوتره، وجول إمام صاحب، كما وهناك بعض الحسينينا في جبل عامل وبلدان الخليج خاصة بالنساء. وتلعب الحسينيات في العصر الحاضر اهمية دينية واجتماعية وسياسية وثقافية، وقد تحولت منذ بداية القرن العشرين الى نوادٍ إجتماعية ومنتديات ثقافية وتبادل الآراء والتعارف والثقافة ومركزا

للنشاطات الاجتماعية والترفيهية وبخاصة في المناسبات الدينية الشيعية.[4] ويبدو أن صابرينا ميرفان رأت خلال تجوالها في جبل عامل بعض الحسينيا ملحقة بالمساجد الشيعية، الأمر الذي جعلها تعتقد أنهم شيء واحد.

4. من بين المواضيع التي تطرقت اليها الباحثة هو موضوع الشعائر ومعتقدات الشيعة في جبل عامل. ففي معرض حديثها عن الصلاة عند شيعة جبل عامل وسجودهم اثناء الصلاة على "التربة الحسينية"، لم تبين الباحثة سبب سجودهم على هذه التربة، واستعمالاتها الأخرى، الدينية وغير الدينية، مثلا كاتخاذهم السبحة من هذه التربة وأن حاملها يكون في حرز وأمان، وخاصية شفاء هذه التربة للمرضى والمجانين، ووضعها في بيوت الشيعة تبركا بها، وفي السيارات والطائرات والسفن كمأمن من المخاطر، ونثرها في حفر قبور موتاهم ليحشروا يوم القيامة مستبشرين وليحظوا بالجنة، والكتابة بطين هذه التربة على كفن موتى الشيعة،[5] وحبّذا لوم تطرقت الباحثة إلى ذلك لأغنت البحث.

بالرغم من الملاحظات السابقة، فإننا نودّ أن نؤكد على الاهمية العلمية التي نعلقها على صدور هذه الدراسة المتأنية والمستفيضة والموضوعية، والتي سلّطت الأضواء على منطقة ومرحلة مهمتين في تاريخ الشيعة في جبل عامل.

خالد سنداوي

---

[4] للتفاصيل عن الحسينية، أسمائها، استعمالاتها وأحكامها، انظر مقالنا: Khalid Sindawi, "The Ḥusaynī Sermon (al-Khuṭba al-Ḥusayniyya) in Shīʿite Literature: Development Structure, Venue, Preachers, Titles", *Orientalia Suecana* 54 (2005).

[5] للتفاصيل عن أهمية تربة كربلاء لدى الشيعة انظر: جورج قنازع، "كربلاء في الأدب الشيعي"، **الكرمل** 13، 1992، ص 179-194؛ Khalid Sindawi, "The Holy Earth: The Importance of the Land of Karbalāʾ for the Shīʿa", *Islamic Culture* (77)3, 2003, pp. 73-84.